# من أعلام الصحوة في القطر

## للأستاذ سعيد الأفغاني

**لا شك** في أن الأجنبي كان يعاني صعوبة حين يتعلم العربية ليسهل عمله في البلاد العربية المحتلة يومئذ من العراق إلى المغرب ، وبين البحر المتوسط والصحراء الكبرى فالحروف غير حروفهم التي بها يكتبون ويقرؤون والألفاظ لا تكاد تجري بها ألسنتهم إلا بعد ممارسة وعناء وبدل أن يصبروا على ترويض ألسنتهم بها ، زين لبعضهم الهوى والغطرسة أن نخدمهم نحن فنستبدل حروفهم بحروفنا ولا بأس في أن ننسف قواعد لغتنا لنضع شيئا على نمط قواعدهم ، ولنهجر الفصحى لأنها لا تفيدهم في حكم مستعمراتهم ، وليصطنع كل بلد مغصوب لهجته الدارجة السوقية مشوبة بشيء من لغة السادة ، فلا أرب للمحتل وراء ذلك ، ولم لا يكون ذلك وبيدهم السلطة والحكم ، وآلات البشر في كل بلد صاغوها على هـذه المقاصد . . فإذا نجمت خططهم عادت عليهم بعد عقود من السنين ، بنفع في ميدانين تسهيل المهمة على موظفيهم ، وقضاء على مقوماتنا من ثقافة ركناها اللغة والدين .

لم يفتهم درس نفسية الجماعات ، فقد عرفوا أن البدء ينبغي أن يكون بين غوغاء المتعلمين لا خاصتهم ، وأن للتكرار بينهم أثرا مهما يكن خافتا في البدء فالزمن كفيل بتقويته وتتابعت الحملات بفواصل مقدرة ، سبروا في كل فاصلة ردود الفعل ، فانتفعوا بدراستها لحملة قادمة ، ولم يلتزموا أسلوبا واحدا في دعاياتهم ، وكل دعاية ضعفت أو صدت استأنفوا بعدها غيرها في ثوب جديد وأبواق كانوا قـد بثوها في كل بيئة ، علمية كانت أم أدبية أم سياسية أم طائفية ، لقد تجمعت مزاعمهم في مشكلات اللغة العربية في ثلاث :

١ — الحرف العربي .

٢ — الازدواج بين العامية والفصحى ، أو بين لغة الكتاب والقراءة ولغة الحوار السوقية .

٣ — صعوبة القواعد العربية .

---

( * ) ألقى البحث في الجلسة الثالثة للعيد الخمسيني .

أما ما زعموا من مشكل فى الحرف العربى والازدواج اللغوى فلا أعرض له ، لأنه أصبح معلوما من كثرة ما نشر فيه تأييدا وردا ، بل ذهب بعض خاصة المستشرقين إلى تفضيل الحرف العربى صحةوجما لا واختصارا[1] ، والازدواج اللغوى موجود فى كل اللغات ، فى كل منها لغة كتابة ولغة سوق على تفاوت فى الفروق ، بل إن عاميتنا نحن من يوم بدؤوا بدعايتهم لها ، قد تقربت جدا من الفصحى نتيجة لانتشار التعليم لذا لم يلق الناس بالا لهذين الأمرين ، إلا فى الشاذ النادر ، وكنت قد عرضت لهذين الأمرين من سنين طويلة فى غير مقام .[2]

بقى الأمر الثالث الذى زعموا فى صعوبة قواعد العربية ، وكان مصيره خليقا أن يكون كمصير الزعمين السابقين ، لولا أن كثرة ترديدهم له على الأسماع من حين إلى حين فى سنين متباعدة جعلت بعضنا يتوهم أن هناك مشكلة ، وجعلتهم يفكرون ويطبون لها دون دراسة ولا تمحيص ولنذكر أن النحو كان يدرس أول القرن الماضى فى الآجرومية وشروحها ثم شروح الألفية وحواشيها وما إلى ذلك ممـــا ألف فى عصور سلفت يبدأ الطلب باستظهار متن غامض مغلق مكثف العبارة ( نثراً أو نظماً ) ثم يترقى إلى شرح المفروض فيه جلاء وإيضاح ، ثم تأتى الحاشية والتقرير يناقشان فى الغالب عبارة الشارح مناقشة لفظية عقيما ، وتنقضى سنوات حتى يحيط الطالب بعبارات المؤلفين المتأخرين لكنه لم يزاول فى الواقع نحوا يعصم بيانه من الخطأ ، ولا قرأ كلاما عربيا يقوى من سليقته أو ملكته . هذا كان فيما سبق ، ولعل الأجانب الذين حاولوا تعلم اللغة العربية فى بلادنا أول القرن الماضى فما بعد ظنوا أن هـــذا هو النحو العربى ، فنعتوه بما شاؤوا من صعوبة وإغلاق وتعقيد ، وورث هـــذا النعت خالف عن سالف وكثر انتشاره بينهم ، حتى حكينا نحن عنهم مزاعمهم التى بليت ، تقليدا أعمى مدة من الزمن ، ثم تكفلت النهضة باتباعنا الأساليب الحديثة فى التأليف والتدريس حتى الثلاثينيات من قرننا هذا تكفلت بما يجب من إصلاح وإيضاح وتشذيب واختصار وخير ما أذكر من النماذج الصالحة سلسلة ( الدروس النحوية ) للمدارس الابتدائية التى اشترك فى إخراجها حفنى ناصف ورفاقه عليهم جميعا رحمة الله ، فكانت حميدة الأثر فى أجيال متعاقبة فى أقطار شتى ثم عمل حفنى ناصف ( قواعـــد اللغة العربية للمدارس الثانوية ) فكان عمله مسك الختام ، ضاما كل مالا يجوز لمثقف جهله من

---

( ١ ) يوحنا أهتنين كرسكو الفنلندى ، ترجمة الأرشمندريت توما ديبو المعلوف – مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ٤ / ٤٨٦ سنة ١٩٢٤ م

( ٢ ) كتابى ( من حاضر اللغة العربية ) ص ١٥٦

قواعـــد اللغة نحوا وصرفا وبلاغة ، فى حجم لطيف يقل عن مئة وخمسين صفحة من القطع الصغير ، بهذه السلسلة تخرجت والحمد لله فى دراستى الابتدائية والثانوية أنا وجيلى الذى تميز ممن جاؤوا بعد بتفوق كبير .

مهما يكن فقد أوقع ترداد تلك المزاعم على مدى سنين بعـــد ذلك ، أوقع فى نفوس بعض المسؤولين أن الضعف والعلة فى طبيعة القواعد العربية فكان بدء النكسة ، وتمكنت هذه الخرافة بل الدسيسة فى أوهام عدد من الفضلاء ، فكانت محاولات فيما أسموه بالتيسير والتبسيط ، محاولات رسمية وغير رسمية ، وعمدت وزارة المعارف فى مصر إلى تأليف لجان تطب لهذا الضعف المزعوم ، فكانت (لجنة تيسير القواعد العربية ) ، عملت زمانا ثم انتهت إلى مشروع فى الثلاثينيات لم يقبله أولو الشأن ، وتمضى سنوات ثم يعقد مؤتمر المجامع اللغوية العلمية العربية فى دمشق بين ( ٢٩ /٩ / ١٩٥٦ — ٤ / ١٠ / ١٩٥٦ ) ، ويعرض عليه المشروع ذاته ، ويناقش كما نوقشت دعوى ازدواج اللغة العربية ( الفصحى والعاميات ) وما يزعم من صعوبة وتنجح الشام فى عقد الإجماع من المؤتمرين على إبعاد العاميات وتمكين الفصحى . أمـا مشروع تيسير النحو وكان فى توصيات المؤتمر أنه فى حاجة إلى زيادة فى التمحيص وتأجيل النظر فيه إلى مؤتمر آخر (١).

لكن أصحاب المشروع حملوا وزارة المعارف على إقراره وعـلى تأليف كتب المدارس على أساسه وفرض المشروع على التعليم فى مصر ، ثم دعيت لجنة من وزارة التربية والتعليم السورية ، أيام وحدة الشام ومصر إلى القاهرة ، لتشترك فى لجنة عامة تخطط لتطبيق المشروع مع الكتب المدرسية التى ألفت على أساسه ، على المدارس السورية وبعـد درسه اعتذرت اللجنة السورية من عدم تطبيقه لأضرار وأسباب أبانتها ، وانتهى نقاش المجتمعين سنة ١٩٦٠ على أن يعقد مؤتمر عام يشترك فيه كل المعنيين بالأمر فى وزارتى التعليم والجامعات من القطرين معا .

وفى العام التالى عقد هذا المؤتمر باسم (حلقة تيسير النحو ) فى كلية دار العلوم فى القاهرة بين (٤ /٢ / ١٩٦١ — ١٩٦١/٢/٩ ) وبعد الاستماع إلى كلمات المؤيدين والمخالفين أصدر المؤتمر قراره برفض المشروع .(٢)

---

( ١ ) المصدر السابق ص ١٩٩

( ٢ ) المصدر نفسه ص ٢٠٠

يدعى كثير أن التلاميذ الذين أنهوا تحصيلهم الثانوى فى المدارس الرسمية ضعفاء فى العربية أكثر من ضعفهم فى اللغة الأجنبية ويضيفون أن هؤلاء التلاميذ يعبرون عن مرادهم فى الإنجليزية أو الفرنسية بكلام واضح سليم فى الجملة ، على حين يعجزون عن التعبير فى العربية ببيان خال من التعثر واللحن . أقول : ربما كان هذا واقعا ، لكن ما السبب ؟

كنت مصطافا سنة ١٩٢٨ فى إحدى قرى دمشق ، فكنت أسمع فى كل يوم خميس مناديا يعلن فى الأزقة والحارات بصوت جهير : أن الطبيب قادم غـــدا ويعالج المرضى فى دار فلان ، وكان على يمين الطريق إلى تلك الدار منخفض فيه مستنقع ضحل تحوم فوقـــه أصناف من البعوض وتنتشر منه رائحة الماء الآسن ويستقبل الطبيب مرضاه طول النهار رجالا ونساء ، أطفالا ومسنين ، مصـــابين جميعا بالملاريا ، فكان يوصيهم بعـــد فحصهم بالحمية ويعالجهم بأقراص الكينا والاسبرين ، وعلمت فيما بعد أن هـــذا شأنه من أعوام ، ومصيبة الملاريا هى التى تعاودهم كل عام ، إلى أن يسر الله من نصح لأهل القرية بردم المستنقع فخف المرض الجماعى ثم زال .

إن الدعوى أن المسؤول عن الضعف فى اللغة العربية هو قواعدها باطلة كل البطلان ومقدمتهم التى أرادوا البناء عليها فى تعليل الضعف مقدمة غير صحيحة ، والصحيح أن هـــؤلاء التلاميذ الضحايا درسوا الإنجليزية وما درسوا العربية ، درسوا الإنجليزية بالإنجليزية على أحسن أسلوب وأقومه ، ولم يدرسوا العربية بالعربية ، بل بالعاميات الدارجات فى قراهم وأريافهم وبلدانهم ، لقد اختلفت المقدمتان فكيف لا تختلف النتائج ؟

يلقى الأحداث فى أول دراستهم اللغة الإنجليزية مثلا حوارا وحديثا سهلا حول كلمات يسيرة ممـــا يستعمل يوميا بلغة سليمة ثم يتدرجون فى الصعود، وقد حدد الزاد اليومى من الإنجليزية بدقة ورسم المنهج بإحكام بحيث يزيد محصول الطفل من المفردات والتراكيب كل يوم ، ويدرب على استعمالها فى محادثة هينة ، هـــذا شأنه حتى ينهى دراسته الثانوية . أما فى اللغة العربية فالأمر مختلف ، فخطوات التدريس غير متدرجة والزاد من المفردات والتراكيب غير محدد بعناية ، الطفل لا يتكلم العربية الصحيحة ، ولا يسمعها من معلمه أو مدرسه ، أمـــا الخطة فعلى ما خيلت إن كانت هناك خطة ، بل أجهر بالقول ــ وأنا فى غاية الألم ــ أن الدراسة الثانوية لغتها هى العامية الدراجة حتى فى درس القواعـــد العربية ، والجامعات حتى أقسام اللغة العربية منها تلقى فيها أكثر المحاضرات بالعامية الدارجة وهى لغـــة الدرس فى الواقع وإن كان الدستور وقوانين الجامعات تنص

على أن لغتها الرسمية هى العربية ، هـذا ما سمعته كثيرا ولم أكن لأصدقه لولا أنى أنا نفسى حضرت فى زيارتى لأحد الأقطار العربية — وذلك فى الأربعينيات — محاضرة فى قاعة الدراسات العليا من قسم اللغة العربية فى إحدى جامعاته ، عنوانها ( الأصوليون واللغة ) وهو كما يعلم المختصون من أعلى الموضوعات وأدقها ، ألقى ارتجالا دون نظام بلغة أكثرها عامى سوقى :

وفى سنة ١٩٦٣ كنت أزور جامعة طهران فسألت أحد مدرسيها الفضلاء فى قسم اللغة العربية فيها عن مستوى العناية العربية عندهم فأفاد أن لهم بها عناية فائقة ، فلها ست ساعات أسبوعية فى المدارس الثانوية ، لكن النجاح فيها لصعوبتها لا يوازى النجاح بالإنجليزية التى ساعاتها أقل ، فسألته عن الكتب التى يتعلم بها الطلاب فسمى لى كتبا قديمة ، بطريقة المتون المعقدة المكثفة ، وعليها شرح باللغة الفارسية ، وبطبيعة الحال يكون الحوار بالفارسية ، فعـدت أسأله عن الكتب الإنجليزية أهى مشروحة متونها بالفارسية ويتعلمونها على الطريقة التى يتعلمون بها العربية ؟قال : لا ، هى نوع آخر ، فقلت إنكم لا تدرسون العربية ، بل تشرحون بالفارسية معنى المفردات العربية فى المتن أتريدون أن يتعلم طلابكم العربية ؟ علموها كما تعلمون الإنجليزية تماما فى تسلسل حلقاتها وفى الحـوار بها فى الدرس واحظروا الشرح والحوار بغيرها ، فلم يجب لكن ملامح الاستنكار بدت على وجهه كأنى حين نصحت بتغيير الكتب وطريقة التدريس جعلت مع الله شريكا .

إذا أردنا العافية بصدق وإخلاص ، فعلينا الإقرار بمرضنا لا نخفى من أعراضه شيئا إن مـا يذكر من إخفاق التعليم العربى فى أقطارنا سببه أننا ندرس بغير اللسان العربى القويم مخالفنا طبيعة الأشياء فى تعليم اللغات ، ونطق الأشياء ( غير ) طباعها متطلب فى الماء جذوة نار ،سببه أننا نمارس عملنا فى غيبة من ( ضمائرنا ) ومن مراقبة الله فى عملنا ، سببه أننا نعالج بالكينا والإسبرين ومولدات المرض ملأت من حولنا الأجواء ، فالذنب ذنبنا لا ذنب النحو والقواعد ولا ذنب الطلاب ،علينا أولا أن نردم المستنقع،علينا ألا تشهد مدارسنا ومعاهدنا شيئا من العاميات السوقيات علينا أن نأخذ أنفسنا وأبناءنا بالفصحى السليمة السهلة الواضحة حتى فى درس الرياضة وأن يكون تعليمنا اللغة العربية على أقوم الأساليب فى التربية وأصول التدريس ، ولن نحتاج بعد هـذا إلى النحو أو القواعد النظرية لأنا نكون قد ملكنا اللغة عمليا .

أما نقل مسائل من باب إلى باب ، واستبدال المصطلح المعقد بالمصطلح الواضح المفهوم ، وأن يجرب كل متعرض لما لا يحسن ما يظنه براعة فى نقل مصطلحات من المنطق إلى النحو ، أو من نحو لغة أجنبية يترجمها إلى العربية[1]، أو تفريق مجتمع فى باب نحو أو تجميع متفرق ثم تقديمه فى مشروع أو محاولة إصلاح فى باب آخر فهذا كله اشتغال فى غير موضع العلة .

لقد آن لنا أن نوقن يقينا لاشك فيه بالبديهة التى سلم بها كل أصحاب الألسنة، وهى أن اللغات تكتسب بالممارسة سماعاً ونطقا لا بحفظ القواعد أما علة انخداع أفاضل منا فمن المسلمات فى بحوث علم النفس وفى باب أساليب الدعاية خاصة ، ما للترديد والتكرار الملح من أثر حتى على أشد الناس مناعة ، وأعترف أن مكر أولئك الدعاه من أعدائنا فى بث السموم مزينة منوعة ، أحدث زيفا حتى فى نفوس من لا شك فى سلامة نياتهم ، وشل الوعى فى غير واحد منا من رجال العلم والأدب فاستسلمنا للتنويم فرددنا ما قال أولئك الماكرون فى صعوبة القواعـد العربية، حتى أذكرونا مثلا كان ضربه ابن المقفع فى كتابه ( كليلة ودمنة ) أن ناسكا اشترى عريضا ضخما ليجعله قربانا ، فأتمر به قوم ليخدعوه عنه فعرض له أحدهم فقال له أيها الناسك ما هـذا الكلب معك ) ثم غرض له آخر فقال« إنى لأظن هـذا الذى عليه ثياب الناسك ليس بناسك ، فإن الناسك لا يقود الكلاب » ثم عرض له آخر فقال له : « أنت تريد الصيد بهذا الكلب؟ » فلما قالوا له ذلك لم يشك أن الذى معه كلب وقال فى نفسه ( لعل الذى باغنى سحرنى وخدعنى ) فخلى عنه ، فأخذه النفر فذبحوه واقتسموه » .

أفحتم علينا إذا بقى الماكرون يمكرون أن نبقى نحن إلى اليوم — ذلك الناسك المغفل ؟

أما بعد فهل على من حرج — ونحن نحتفل بالعام الخمسين لإنشاء هذا المجمع الخير — أن أعود بالذاكرة إلى عهد سلف ، عهد الصبا وكنت قريب الدار من مكتبة الملك الظاهر فى شمال الجامع الأموى الكبير بدمشق ، وقبالته المدرسـة العادلية الكبرى حيث أقيم المجمع العلمى أيام الملك فيصل بن الحسين رحمه الله ، وكنا فتية أجلاس المكتبة ، نشغل أوقاتنا بالمطالعة ، ونحضر فى أمسيات المجمع محاضرات عامـة كانت إقامتها من سنة المجمع منذ إنشائه حتى إلغائه سنة ١٩٣٤ ، وظللت أطالع مجلة المجمع

---

( ١ ) انظر مثلا : أنيس فريحة من الجامعة الأمريكية فى بيروت، تبسيط قواعد العربية وتيويبها على أساس منطق جديد —مطابع المرسلين اللبنانيين— جونيه . وله نشرة ( هذا الصرف وهذا النحو أما لهذا الليل من آخر ) والعنوان يشعر بتعصب ذميم لهذه الطائفة على العربية .

بانتظام ، حتى إذا أنشئ بالقاهرة مجمع اللغة العربية (وكان اسمه مجمع فؤاد الأول للغة العربية ) ابتهجنا بالخبر أيما ابتهاج ، فلما ورد العدد الأول من مجلته تخاطفناه بيننا ، وتمت لنا بشريان : بشرى تأسيس مجمع القاهرة وبشرى صدور مجلته ، ثم صار وصول كل عدد جديد منها خبرا سارا نتناقله ، وظلت أسماء الرعيل الأول من أعضائه ملهج ألسنتنا ومدار أحاديثنا ، نتذاكر بحوثهم وآراءهم ، وقد استأثرت رحمة الله بهم جميعا ، فلا أقل من وقفة خاشعة نذكرهم فيها بالخير ، ونضرع إلى الله أن يجزل لهم الثواب والكرامة .

لقد صارت مجامعنا الثلاثة فى دمشق وبغداد والقاهرة قلاعا للعربية ، ومن حسن حظنا أنا كنا نتابع نشاطها بغبطة وسرور ، فإذا شغل الجلاس والسمار بأخبار الحكام والساسة وأقوال الصحف ودعاة الأحزاب عمرت مجالسنا بما كتب محمد كرد على وشكيب أرسلان ومحمد سليم الجندى وأسعد الحكيم وعز الدين التنوخى وعبد القادر المبارك المغربى والفكرى والشهابى بدمشق والشبيبى وطه الراوى ونعمان القاضى بالعراق وأحمد الإسكندرى ومحمد الخضر حسين وحمروش ومحمد حسين والى والعوامرى والحارم فى القاهرة ، وتذاكرنا ما أجدوا من بحوث ومقالات وأوضاع ،

جمال ذى الأرض كانوا فى حياتهم  لما قضوا أصبحوا للكتب والسير

أثاب الله أولئك الأعلام المناضلين عن مقوماتنا وتراثنا أفضل ما أثاب مجتهدا مصلحا عن أمته ، وأخذ بناصر من سلك طريقهم فلم يضل ولم يضل ، وأيد حاملى لواء العربية فى هذه الأيام ، أخلاف أولئك النصحة المخلصين ممن لا تأخذهم فى الحق لومة لائم ، ووفق هذه المؤسسات حتى تحقق قول الشاعر القديم :

رأيتك أمس خير بنى لؤى  وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غدا تزيد الخير ضعفا  كذاك تزيد سادة عبد شمس

**الاستاذ سعيد الأفغانى**
عضو المجمع من دمشق